أوهـــام في الزيتون

للآنسة الفاضلة فدوى عبد الفتاح طوقان

«في السفح الغربي من جبل (جرزيم) حيث تملأ مغارس الزيتون القلوب والعيون ، هناك ، ألفت القعود في أصيل كل يوم عند زيتونة مباركة ، تحنو على تمشي ظلالهـــا ، وتمسح على رأسي عذبات أغصانها ! وطالما خيل لي أنها تبادلني الألفة والمحبة ، فتحس بإحساسي ، وتشعر بشعوري.
وفي ظلال هـــذه الزيتونة الشاعرة كم حلمت أحلاماً ووهمت أوهاماً » .

هنا ، هنا ، في ظل زيتونتي   تحطم الروحُ قيودَ الثرى
وتخلد النفس إلى عزلة   يختنق فيها الصمت لغوَ الورى

هنا ، هنا ، في ظل زيتونتي   في عدوة الوادي ، بسفح الجبل
أصغي إلى الكون ولما تزل   آياته تروي حديثَ الأزل

هنا يهيم القلب في عالم   تخلقه أحـــلامَ المبهمه
لأفقه في ناظري روعـة   وللرؤى في سمعي هيلمه

عالم أشـــواق سماوية   تطلق روحي في الرحاب الفساح
خفيفةً ، لا الأرض تثني لهـا   خطواً ، ولا الجسم يهيض الجناح

واهاً ! هنا يهفو على مجلسي   من عالم الأشواق روح حبيب
لم تره عينـــاي ، لكنه   في خاطري ، يا للبعيد القريب

أكاد بالـــوهم أراه مسى   يغمر قلبي بالحنان الدفيق
يمضي به نحو سمـــاء الهوى   على جناح من شعاع طليق

زيتونتي ، لله كم هاجس   أوحت به أشواقي الحائره ...
وكم خيالات ومى خاطري   تسري بها أغصانك الشاعره !

تجيئي أنت وقـــد عزّني   نجيُّ روحي يا عروس الجبل
دمى فـــؤادي يشتكي بثّه   لعل في النجوى شفاءً ، لعل

يا ليت شعري إن مضت بي غداً   عنك يدُ الموت إلى حفرتي
تراك تنسين مقامي هنـــا   وأنت تحنين على مهجتي ؟

تراك تنسين فؤاداً ومّت   أسراره أغصانك الراجحات

باركها الله ، لكم ناغمت   وهدهدت أشواقه السارحات !

زيتونتي ، بالله إما هفت   نحوك بعدي النسمة الســائغه
فاذّكري كم نفحتنا معاً   عطورها الناعمة الفاغمـــه

وحين يستهويك طيرُ الربى   بنغمة ترعش منك الغصون
فاذّكري ، كم طائر شاعر   ألهمه شدوي شجيّ اللحون !

تذكريني كلما شمشمت   أوراقك الخضراء شمس الأصيل
فكم أصيل فيه شـــيعتها   بمهجة حرّى ، وطرف كليل

إن يزوها الترب عن عرشها   فالشرق الزاهي بها يرجع
لكنني ، آهاً ، غداً تنزوي   شمس حياتي ثم لا تطلع !

ويحي ، أتطويني الليالي غداً   وتحتويني داجيات القبور ؟
فأين تمضي خفقات الهوى   وأين تمضي خلجات الشعور ؟!

ونور قلبي ، والرؤى ، والمنى   وهـــذه النار بأعماقيه ...
هـــل تتلاشى بدداً كلها   كأنها ما لم تكن ذاتيه !..

أما لهذا القلب من رجعة   للوجد ، للشعر ، لوحي الخيال ؟!
أيخمد الشبوب من ناره   واشقوة القلب بهذا المآل !.

يا رب إما حان حين الردى   وانتزعت روحي من هيكلي
وأعنقت نحـــوك مشتاقة   تهفو إلى ينبوعها الأول ...

وبات هذا الجسم رهن الثرى   ملقىً على أيدي البلى الجائره
فلتنبت القدرة من تربتي   زيتونة ملهمة ... شاعره ...

جذورها تمتص من هيكلي   ولم يزل بعد طرياً رطيب
تمتصُّ من قلبي أنواره   ومنه تستلهم سرّ اللهيب !

حتى إذا يا خالق أنعمت   عناصري أغصانهــا والجذوز
انتفضت تهـــتز أوراقها   من رقة الحسّ ووهج الشعور

وأفرعت غيـــاء فينانةً   مما ترّوت من رحيق الحياة
تشدو بهذا البعث ، ما تأتلي   تذكر حلماً قد تلاشت رؤاه

حـــلم حياة سربت وانطوت   طافحـــة بالوهم ... بالنشوة
لم تك إلا نغماً شـــاجياً   على رباب الشوق والصبوة !

(نابلس)   فدوى عبد الفتاح طوقان